

تفسير ابن كثير

قد تقدم الكلام على قوله تعالى : { سبح } ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم { غير مرة بما أغنى عن إعادته وقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } إنكار على من يعد وعدا أو يقول قولاً لا يفي به ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان] وفي الحديث الآخر في الصحيح [أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهم كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها] فذكر منهم إخلاف الوعد وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري و الحمد والمنة ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : { كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون } .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وما أردت أن تعطيه ؟] قالت : تمرأ فقال : [أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة] وذهب الإمام مالك C تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعود وجب الوفاء به كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة } .

وقال تعالى : { ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ؟ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت } الآية وهكذا هذه الآية معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به فلما نزل الجهاد كره

ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال اﷺ سبحانه وتعالى : { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } وهذا اختيار ابن جرير : وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى اﷺ لعملنا به فدلهم اﷺ على أحب الأعمال إليه فقال : { إن اﷺ يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا } فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي صلى اﷺ عليه وسلّم مدبرين فأنزل اﷺ في ذلك { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي .

ومنها من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب وصبرت ولم يصبر وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون قتلنا وضربنا وطعنا وفعلنا ولم يكونوا فعلوا ذلك وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون لهم بذلك وقال مالك عن زيد بن أسلم { لم تقولون ما لا تفعلون } قال : في الجهاد وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد { لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند اﷺ أن تقولوا ما لا تفعلون * } إن اﷺ يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص { فما بين ذلك في نفر من الأنصار فيهم عبد اﷺ بن رواحة قالوا في مجلس لو نعلم أي الأعمال أحب إلى اﷺ لعملنا بها حتى نموت فأنزل اﷺ تعالى هذا فيهم فقال عبد اﷺ بن رواحة لا أبرح حبيسا في سبيل اﷺ حتى أموت فقتل شهيدا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن فقال أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم وقال كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أني قد حفظت منها { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون } فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ولهذا قال تعالى : { إن اﷺ يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } فهذا إخبار من اﷺ تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجيهين لأعداء اﷺ في حومة الوغى يقاتلون في سبيل اﷺ من كفر باﷺ لتكون كلمة اﷺ هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عبد اﷺ حدثنا هشيم أخبرنا مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد الخدري هـ قال : قال رسول اﷺ صلى اﷺ عليه وسلّم : [ثلاثة يضحك اﷺ إليهم : الرجل يقوم من الليل والقوم إذا صفوا للصلاة والقوم إذا صفوا للقتال] ورواه ابن ماجه من حديث مجالد عن أبي الوداك جبر بن نوف به وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا الأسود يعني ابن شيبان حدثني يزيد بن عبد اﷺ بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتي لقاءه فلقيته فقلت يا أبا ذر كان يبلغني عنك

حديث فكنت أشتهي لقاءك فقال : ﷺ أبوك فقد لقيت فهات فقلت كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم حدثكم أن الله ﷻ يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة قال أجل فلا إخالني أكذب على خليلي صلى الله عليه وسلم قلت فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ ؟ فقال : رجل غزا في سبيل الله ﷻ خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل وأنتم تجدونه في كتاب الله ﷻ المنزل ثم قرأ { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } وذكر الحديث هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق وهذا اللفظ واختصره وقد أخرجه الترمذي والنسائي من حديث شعبة عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن زيد بن طبيان عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم وقد أوردناه في موضع آخر والله الحمد .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله ﷻ تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : [عبدي المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه الشام وأمنه الحمادون يحمدون الله ﷻ على كل حال وفي كل منزلة لهم دوي كدوي النحل في جو السماء بالسحر يوضون أطرافهم ويأتزون على أنصافهم صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة] ثم قرأ { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم لو على ظهر دابة رواه ابن أبي حاتم وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا } قال : كان رسول الله ﷻ صلى الله عليه وسلم لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم وهذا تعليم من الله ﷻ للمؤمنين قال وقوله تعالى : { كأنهم بنيان مرصوص } أي ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض وقال ابن عباس { كأنهم بنيان مرصوص } مثبت لا يزول ملتصق بعضه ببعض .

وقال قتادة { كأنهم بنيان مرصوص } ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه فكذلك الله ﷻ لا يحب أن يختلف أمره وإن الله ﷻ صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله ﷻ فإنه عصمة لمن أخذ به أورد ذلك كله ابن أبي حاتم وقال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن يحيى بن جابر الطائي عن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله ﷻ : { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجئوا في لحيي